الفصل الثاني

لأنهم لا يفعلون ما يعلمون
لماذا يخالف الوعي بالبيئة السلوك؟

مالي أنا بالأجيال التالية؟
هل فكرت الأجيال السابقة مرة في؟
غروتشو ماركس

على كل فرد يريد أن يتعامل تعاملاً صحيحاً مع البيئة أن يكتسب حصانة ضد الإحباط وخيبة الأمل، فيضع خطّة جيدة لإنقاذ المناخ، ويناقشها بالتفصيل مع أفراد أسرته في حالة من النشوة والحماس لأنه يريد المساهمة بشيء، لكنه سرعان ما يدرك أن ما كان يقصد به خيراً هو عكس ذلك الخير. فعلى سبيل المثال، تحاول السيدة التي تمتلك قدراً من الوعي بالبيئة أن تلتزم بشراء السلع العضوية أثناء التسوق، فالسلع العضوية أفضل للصحة، كما أنها محلية التصنيع، فعدم نقل تلك المنتجات من أماكن بعيدة لا يضر بالبيئة.

ويمثل الاستهلاك الخاص في ألمانيا حوالي 40 بالمائة من حجم انبعاثات الغازات الدفيئة السنوية للفرد. لقد قرأت ذلك السيدة "كاترين" وحاولت على الفور تحسين سلوكها البيئي الخاص. والحمد لله أن كل سوبر ماركت يحوي ركناً للمنتجات المحلية من الدواجن والتفاح ومنتجات الألبان والسجق من إنتاج فلاحين بعضهم معروف بالاسم أو الشكل.

ينفي تلك الحالة علماء معهد البيئة بمدينة فرايبورغ. ويقول راينر غريسهامر: "سيصبح التفاح المنقول لمسافات طويلة أفضل في الحسابات البيئية من الأنواع المحلية ابتداء من شهر مايو على حد أقصى." وقد أجرى العلماء تجارباً لبحث البصمة الكربونية في عشر سلع استهلاكية، وتوصلوا إلى ضرورة التخلي فقط عن المنتجات التي تنقل جواً لمسافات طويلة مثل الثمار الأجنبية وسمك السلمون المستورد من ألاسكا.

وتترك المرأة المستهلكة المجلة التي بيدها في حيرة، لا تريد الاستسلام. لم يقدم لها العلم سوى معلومة يعرفها كل إنسان ويمكن قراءتها على كل علبة دواء: كل تصرف يمكن أن يؤدي إلى آثار جانبية مضادة غير معروفة أو مقصودة أو محسوبة أو متعارضة مع مراد المتصرف. أي أن من أراد التصرف بشكل بيئي سليم – وهو بالطبع أمر لا يعترض عليه أي باحث في مجال البيئة - فعليه أن يعد نفسه للتعامل مع قدر كبير من المتغيرات التي قد تنتج مع تغير عنصر واحد فقط. فينبغي حساب عدد الكيلومترات التي تسيرها شاحنة محملة بالتفاح قادمة من أسبانيا مقابل استهلاك الطاقة الذي يسببه التخزين البارد للتفاح المحلي، أو مقابل إعداد وجبة طعام، أو غسل الأواني، أو التخلص من القمامة. إن انبعاث الغازات الدفيئة يظل متواصلاً على مدى دورة حياة المنتج، بغض النظر عن كون ذلك المنتج تفاحة عادية أو عبوة زبادي سيئة السمعة تم انتاجها وتعبأتها كمنتج عالمي. وليس هذا فحسب: فالمنتج "العضوي" (الذي قد تكون له أيضاً مضاعفات مشابهة) قد يكون "حيوياً" من ناحية التصنيع، لكن بالنظر إلى عوامل أخرى أقل إفادة للبيئة من منتج آخر قد لا يكون حيوياً على الإطلاق. من ناحية أخرى فقد ينتج عن شراء بضائع المزارعين المحليين أضرار على سياسة التنمية الاقتصادية.

سيشق ذلك كله على كثير من الناس، وسيعودون إلى ممارساتهم القديمة دون مبالاة أو سيستسلمون لخيبة الأمل أمام قضية البيئة. فتصرفاتهم حسنة النية خاطئة. يبدو أن أدورنو كان محقاً في رؤيته بأنه "ما يبنى على باطل فهو باطل".

نظرية التنافر المعرفي

دعي أحد مؤلفي الكتاب العام الماضي لحضور فعالية دعا إليها رجل أعمال شاب من أقوى الناقدين الذين يحملون هم مشكلات المستقبل، وتناولت الفعالية مناقشة العلاقة بين الاحترار المناخي والعنف. استطاع هذا الرجل خلال وقت قصير تشكيل مجموعة من أصحاب الشركات المتوسطة للعمل على تنشيط أهالي البلدة في الانخراط في سياسة البيئة. وقد نجحت الفعالية التي حضرها أكثر من مائة شخص، وهي مشاركة ممتازة بالنسبة لمدينة صغيرة يقطنها حوالي 20 ألف نسمة. وبعد انتهاء الفعالية قال رجل الأعمال الشاب في حديث جانبي أنه طلب لتوه سيارة "أودي" موديل (RS 6) بقدرة 580 حصان، وهو أقوى محرك لسيارة ليموزين متوافرة في الأسواق في ذلك الحين. وعند سؤاله عن السبب أجاب بأن "الوقت الحالي هو الفرصة الأخيرة لذلك، فلن يمكن قيادة مثل تلك السيارات بعد عدة سنوات."

لا تظهر هذه الحالة فحسب حجم الفجوة الهائل بين وعي الناس وإمكانيات تصرفاتهم، وأنهم لا يألون بالاً في إدماج أوضح المتناقضات بسهولة والتكيف مع الحياة اليومية على هذا الأساس. إن ما يثير الاستغراب هو صورة الإنسان التي تسللت إلى التصور الإجمالي من فلسفتي الأخلاق واللاهوت الأدبي، وعلى الأرجح من طابعهما البروتستانتي، اللتان تظهران أن الإنسان يسعى إلى حرية التناقض. فإذا جاء تصرف الإنسان مخالفاً قناعاته وُصف على الفور بكونه "مريض بالفصام" أو شخصية غير صارمة. ولا يعتبر وجود دوافع التصرفات في هيكل شخصية الفرد، وأن المواقف هي الباعث على التصرف فكرة واقعية تماماً، حيث ينبغي أن يتحرك الإنسان بمرونة بين صورته وقراراته المتعلقة بكل موقف وتصرف، حتى تتطابق المواقف الاجتماعية المختلفة والمتطلبات المتغيرة مع التوقعات الكثيرة بممارسة أدوار بعينها. ويسمى إرفينغ غوفمان، عالم النفس والاجتماع،

البعد بين الذات وتلك الأدوار الكثيرة التي تؤديها الذات "تباعد الأدوار" واصفاً بذلك قدرة مركزية لدى الناس الذين يعيشون في المجتمعات الحديثة.

تعتبر أصول وأسباب التصرفات التي تحدث في إطار التنشئة الاجتماعية – أو بالأحرى في حياة الفرد – أمور ثانوية مقارنة بمتطلبات الموقف وسبل الحل المتخذة. كذلك فإن فكرة تحلي الإنسان دائماً بأخلاق معينة أو استراتيجيات ثابتة بغض النظر عن ملابسات الموقف أثبتت عدم فاعليتها، بسبب تعدد المتطلبات المفروضة على الإنسان في المجتمعات الحديثة. وبالفعل، فإن من يتصرف طبقاً لمتطلبات التناسق يوصف بعدم المرونة، إن لم يوصف بأنه حالة مَرَضية. الأمر الذي يدفع إلى القول بوضوح إن التصرفات تحدد الإنسان أكثر مما يحدد الإنسان التصرفات. ولا ينطبق ذلك على طيف التصرفات "الطبيعية" فحسب، بل – وعلى الأخص – عندما يفعل "أشخاص طبيعيون جداً" أموراً "غير طبيعية على الإطلاق" مثل المشاركة في المذابح والجرائم الجماعية والمطاردات وما شابه ذلك.

إن ميل الإنسان لرؤية الأمور على عكس ما هي عليه، والبحث عن دوافع التصرف في الأشخاص أكثر من المواقف، يرجع إلى ما يسمى "خطأ العزو الأساسي" ، وهو المصطلح الذي يطلقه علم النفس على استناد الإنسان للظروف المحيطة دائماً في تبرير تصرفه الخاص، فعندما يحتاج الأمر إلى سرعة التعامل يقال "كنت مضطراً لإلغاء وظيفة السيد "مارتين" ولم يكن بوسعي فعل أي شيء..." أما عندما يتصرف الآخرون فيميل الإنسان عادة إلى البحث عن دوافع هذا التصرف في شخص الآخر، فيقول مثلاً "إنه لا يستطيع إنجاز الأمر لأنه فاشل" أو "لم يذكر أي شيء عن كذا، لأنه كاذب"، أو "لقد قتل السيدة لأنه إنسان شرير". ولخطأ العزو الأساسي وظيفة تنظيمية وتوجيهية. فالحياة تكون أبسط عندما تنعدم ضرورة مساءلة النفس عن تعقيد كل موقف يستدعي التصرف يتواجد فيه الشخص، والاكتفاء بالقول أنه يتصرف هكذا لأن الشخص "هكذا".

يؤدي ذلك بطبيعة الحال – وكما تُظهِر أي متابعة صادقة للذات – إلى تكوّن صورة فوق شخصية للإنسان ينبني عليها افتراض مغلوط بأن على الإنسان أن يتصرف بما يتوافق مع ذاته التي يتخيل كونها خالية من المتناقضات. لا شك أن كل إنسان يواجه يومياً عدة

مرات قناعاته الداخلية المترسخة، وهو ما يعني في موضوع الطاقة أن يساهم في رفع التكاليف بتصرفه بما يخالف تحسّن علمه بالأشياء وبعكس ما تقتضيه الضرورة باستخدامه السيارات الأجرة والخاصة والطائرات. ولا تنتهي الأمثلة التي توضح التضاد بين القناعة الخاصة والتصرفات الشخصية. ويمكن الاستدلال على ذلك كما يلي: إن كنت تحسب نفسك على وعي بحماية المناخ فأعد دفتراً لتسجيل يومياتك تكتب فيه شكل وكم وظروف إخلال تصرفاتك بذلك الوعي. وسوف تلاحظ في كل مرة تدون فيها إخلالاً أنك ستجد على الفور مبرراً جاهزاً للانتقال بالتاكسي (مثل موعد عاجل)، أو تشغيل المدفأة على درجة أعلى من اللازم (لأنك كنت مصاباً بالبرد الأسبوع الماضي)، أو لاستقلالك السيارة للتسوق من السوبرماركت الذي لا يبعد عنك سوى 500 متراً (لا يمكن ترك الأطفال بمفردهم فترة طويلة).

يلاحظ من ذلك أن أخلاق الإنسان تزوده ببوصلة الاهتداء إلى التصرف الخاطئ أو الصائب، ليس لها في العادة تأثير إرشادي على السلوك، وإنما تعطي خطاً إرشادياً لإيجاد المبرر المناسب لإحداث التوافق بين التصرف الخاطئ والوعي السليم. وهذا بالتحديد ما كشفه عدم اتساق رجل الأعمال الشاب عند حديثه عن قوة محرك السيارة، وهو ليس سوى مثال واضح لتناقض بره دون صعوبة، إذ كان وعيه الدقيق بالضرر الذي سيلحق بالمناخ بقرار شرائه السيارة موجوداً بالفعل. وعلى نحو متناقض، قدّم واقع إدراكه لخطأ سلوكه إحساساً أخلاقياً أفضل، فلقد استطاع على الأقل الاعتراف بسلامة وعيه رغم خطأ تصرفه، والتنصل من أولئك الذين يشترون السيارات دون تفكير.

ويمكن أن يلاحظ الفرد التركيبة نفسها عند السفر مثلاً إلى ميلانو بالطائرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، إذ يشعر الفرد بتأنيب الضمير لوجود خلل في توازن ثاني أكسيد الكربون في الجو، ثم يتساءل إن كان جميع ركاب الطائرة فكروا ولو مرة في الضرر الذي تُلحقه كثرة الطيران بالبيئة، لأنه على دراية أكثر منهم. وها هي الأخلاق مرة أخرى تفشل في منع تصرف خاطئ، بل إنها توفّق بشكل أفضل بين المعرفة والتصرف والتهوين من الإحساس بالذنب.

ويطلق علم النفس الاجتماعي على تعقيد طريقة التأويل تلك اسم "تقليل التنافر المعرفي"، وهو مصطلح أدخله ليون فيستنغر استناداً على نموذج غريب، فقد باع أتباع إحدى الديانات الكلتية في ولاية ويسكونسن الأمريكية كل ممتلكاتهم لأن زعيمتهم تنبأت باقتراب ساعة نهاية العالم، التي ستأتي في شكل طوفان كبير. وأخيراً تجمع هؤلاء على قمة أعلى جبل في المنطقة يترقبون لحظة الدمار وينتظرون أن يأتي طبق طائر لينقذهم بصفتهم فئة مختارة من البشر. لكن العالم لم ينهار، وظل أتباع الطائفة الدينية واقفين على الجبل في حيرة. وأراد "فيستنغر" أن يعلم كيف تعامل هؤلاء مع خيبة الأمل التي أصابت توقعاتهم، وتوصل إلى اكتشاف مذهل. فبدلاً من الخذلان والشك في الدين أو إدراك خطأهم البالغ طوّر هؤلاء المختارون على الفور نظرية جديدة، تقول إن الأمر كان بلا شك اختباراً لثبات إيمانهم. بهذا استطاعوا تجنب التناقض بين الحقيقة والقناعة، وبهذا اكتشف ليون فيستنغر ظاهرة التنافر المعرفي. فعندما يرى الإنسان تفاوتاً بين توقعاته وما يحدث في الواقع تتولد لديه حالة من الانزعاج الشديد يصاحبها احتياج صارخ لمحو هذا التنافر أو على الأقل الحد منه، ومن ثم يعمل على ملائمة إدراك الواقع مع قناعته الخاصة، لذلك يرى المدخنون أن إحصائيات مرضى سرطان الرئة مبالغ فيها، ويقلل الذين يقطنون بالقرب من المفاعلات النووية من خطر الحوادث أو الإشعاع مقارنة بالذين يعيشون بمبعد عن المفاعلات الذرية.

يعتبر تغير المناخ ظاهرة تتناسب مع إحداث تنافر معرفي شديد، فالتهديدات تزداد وضوحاً عاماً بعد عام، بينما يتسارع نمو حجم كمية العوادم في العالم بكامله، فقد زادت النسبة عام 2007 بمقدار ثلاثة بالمائة مقارنة بعام 2006، وستكون النتيجة مشابهة لذلك عام 2008. ولن يتراجع الشعور بالتهديد بسحب قضية الاحترار المناخي من الرقابة المباشرة، لأن أسباب الوضع الحالي تعود إلى انبعاثات المعجزة الاقتصادية والسنوات التي تلتها. فكل ما قد يُفعل الآن لن تظهر آثاره إلا بعد عدة عقود. لقد تمزقت سلسلة الأسباب والآثار بسبب خمول المناخ. فماذا الحل إذاً؟

قد يكمن الحل في الاستعانة باستراتيجيات تقليل التنافر المذكورة، أو القول بأن

كثيرين مسؤولون عن استمرار تردي الحال على هذا المنوال، كالصين، أو الصناعة، أو الأغنياء، أو غير ذلك الكثير... فجميعهم مشغول بمضاعفة ثروته مقابل تبخر كافة الجهود الهادفة لإنقاذ العالم التي تستند إلى الإحصائيات السنوية التي تظهر حجم الانبعاثات.

المنطق الجزئي

ماذا تقدم تلك الأمثلة؟ إنها توضح تكيّف الناس مع الظروف البيئية، وأن ذلك التكيف لا يكون بالضرورة تكيفاً بناءً، رغم أن مفهوم التكيف يوحي بنوع من إعادة ضبط ظروف البيئة المتغيرة واختلاف التصرف. فرجل الأعمال الذي أراد شراء السيارة ذات المحرك القوي قبل فوات الأوان لا يهيئ خطة تصرفه قصيرة المدى على المتطلبات طويلة المدى، وهو لا يفعل ذلك دون وعي أو من قبيل السهو، وإنما لاقتناص فرصة رآها متاحة أمامه لمدة قصيرة.

إن ذلك بلا شك تكيف على الظروف البيئية المتغيرة، لكنه تكيف يضع على البيئة أضراراً لم تكن موجودة من قبل. وتتوافر معادلات العقلانية الملائمة دائماً عندما يعلم الإنسان أن تصرفه سيتسبب في ضرر طويل أو متوسط المدى (بل ويواجهها بنفسه في وقت لاحق)، لكنه رغم ذلك لديه من الأسباب ما يجعله يتصرف تصرفاً يتضارب مع معرفته.

كتب جاريد دياموند، أن "صيادي السمك الفقراء في المناطق الاستوائية الغنية بالشعاب المرجانية يستخدمون الديناميت وسينامید البوتاسيوم لقتل صيدهم (مما يتسبب في هلاك الشعاب) كي يطعموا أطفالهم، رغم أنهم على علم تام بأنهم يدمرون أساس مستقبلهم." وفي دارفور قطعت النساء اللاتي يقطن مخيمات اللاجئين جميع الأشجار والنباتات بمحيط عشرة كيلومترات حول المخيم لأنهم يحتجن مواد للطبخ وإحراق الطوب. ويزرع الناس في المناطق الملوثة بالسموم في حوض بحر أرال خضروات يطعمون بها أبناءهم. ويُشغِل أصحاب منحدرات التزلج في سويسرا مدافع الثلج عندما يكون الشتاء دافئاً لضمان توافر الجليد للسياح. وتروج كانتون فاليس – التي تتميز بمرتفعات التزلج العالية – للسياحة بشعار مخيف: "الجليد مضمون رغم تغير المناخ". ويصطاد الصيادون في بحر البلطيق كميات من سمك القد تتعدى القدر المسموح به رغم

أن ذلك يدمر مستقبلهم، لكنه يضمن عملهم لعدة أشهر مقبلة على الأقل. ويضع السياسيون جداول زمنية لا تزيد مدتها على دورة برلمانية، وأحياناً أقل. فكان جدول حكومة الرئيس الأمريكي بوش 90 يوماً، أي أنها تعاملت فقط مع المشكلات التي "يمكنها أن تؤدي إلى حدوث كارثة خلال التسعين يوماً من بدء الخطة." أما الكوارث التي قد تنتج عنها فيمكن معالجتها لاحقاً.

يطلق علم الاقتصاد على ذلك السلوك الذي يتسم بالعقلانية واللاعقلانية عبارة "اقتطاع الأرباح المستقبلية"، أي الاستعداد لتقبل الضرر بأحد الموارد أملاً في تحقيق مكسب قريب، "إذ يمكن إعادة استثمار الأرباح الناتجة عن الاستخدام في الحاضر بحيث تجعل الاستثمارات التي تتراكم على هذا النحو الاستغلال في الحاضر أكثر قيمة منه في المستقبل خلال تلك الفترة" لكن الاقتطاع – في حالة السلوك الضار بالبيئة – يتمثل في الاقتراض من البيئة وتوريث الفاتورة للأجيال المقبلة.

قد يبدو ذلك من قبيل الجشع، وهو ليس غير منطقي أو صعب الفهم من وجهة نظر الأطراف الفاعلة. ويتباين قدر الجشع، وتوضح تلك الأمثلة القليلة حجم إمكانيات التصرف التي يمتلكها من يقتطع استغلال بيئة البقاء على هذا النحو، وتختلف تلك الإمكانيات أيضاً في شركة لإنتاج الطاقة تبحث عن موارد جديدة عن إمكانيات النساء في مخيمات دارفور.

ويمكن حل لغز التضاد بين تصرف الإنسان ومعرفته بإجابة بسيطة، وهي أنه لا يستند في تصرفه إلى عقلانية شاملة، إنما تحدد العقلانيات الجزئية دائماً شكل القرار المتخذ في موقف بعينه واستراتجية الحل. فليس للتعاطف مع انهيار العالم والمجتمع الدولي وتغير المناخ الذي لم يقف عند حدود دولة بعينها تأثير على التصرف، ولا يصلح التعاطف للتعامل مع الواقع الاجتماعي المعيش. إنه لا يساعد سوى في التساؤل بقصد واستغراب عن سبب عدم حكمة الناس. لكن على العكس، فالمشكلة تكمن في أن الناس يتعاملون بمنطقية داخل الأطر المرجعية التي يسترشدون بها عند اتخاذ القرار.

إن أي قرار لا بد أن يكون مسبوقاً بإدراك ما، وتظهر كثير من تجارب علم النفس

الاجتماعي أن مجرد قدر ضئيل من إجمالي المعطيات التي تتوافر في موقف معين هو ما يدركه الإنسان ويقيمه. "تجربة السامري الطيب" واحدة من التجارب التي تثبت ضآلة تأثير الأخلاق على اتخاذ القرارات في المواقف. طُلب من بعض طلبة اللاهوت كتابة خطبة عن حكاية السامري الطيب تحت ضغط الوقت لتسجل فيما بعد على شريط. وكان من شروط التجربة أن يذهب الطلبة بخطبتهم إلى مبنى آخر للتسجيل. وقبل أن ينتهوا من صياغة الخطبة دخل شخص الغرفة وأخبرهم أن الناس في الاستوديو يستعجلونهم لتسجيل الخطبة، فأسرع الطلبة إلى المبنى الآخر. وكان بجانب مدخل المبنى شخص مريض واقع على الأرض (يُمثّل) أنه مصابٌ بنوبة ربو حادة. ولم يقف من الأربعين طالباً سوى ستة عشر فقط لمساعدة الرجل. وبعد انتهاء التجربة وسؤال الأربعة وعشرين طالباً الآخرين الذين لم يتصرفوا مثل السامري الطيب قال أغلبهم أنهم لم ينتبهوا حتى لوجود شخص مريض مستلقٍ على الأرض. ويفسر كل من جون دارلي ودانيل باستون اللذان أجريا هذه التجربة الدقيقة ذلك التصرف بأن إدراك الطلبة قد ضاق بسبب التركيز على مهمة ملحة ترتبط بعامل الضغط الذي وضع تحته أفراد التجربة. "فما العوامل التي ساهمت في اتخاذ ذلك القرار؟ ولماذا كانوا متعجلين أصلاً؟ لأن مسؤول التجربة (...) اعتمد على حضورهم إلى مكان ما في الموعد المحدد. (...) فمن لم يكن متعجلاً وقف محاولاً إسعاف شخص آخر. ومن كان مستعجلاً سيواصل عجلته حتى ولو كان بهدف الحديث عن قصة السامري الطيب."

الالتزامات الحضارية

إن كل من عاملي ضغط الوقت للتصرف، والتركيز على حل مشكلة بعينها، يؤديان في الموقف الذي يستدعي تقديم البعد الأخلاقي، إلى غياب الأبعاد عن حيز النظر وبالتالي عن الوعي. وليس من الدقيق أن يوصف ذلك بكونه "تجاهلاً" أو "كبتاً" لأن تلك المصطلحات تشترط توافر الإدراك الواعي. قد يمكن الحديث هنا عن نوع من الاقتطاع النفسي، أي أن تقييم المواقف يتحسن عندما لا تبلغ جميع العناصر الغير ضرورية في مواجهة الموقف القائم حيز الإدراك الواعي. وهذا هو البعد الإدراكي النفسي

ويعد تأثير النموذج الحضاري الذي يؤدي إلى عدم إدراك متغيرات بعينها في المواقف التي تستدعي التصرف، ثم عدم معالجتها، أمراً أكثر خطورة. قال "ستنالي ميلغرام" ذات مرة أنه يريد أن يعلم سبب تفضيل بقاء الناس داخل بيوتهم على الجري في الشارع دون سروال. من وجهة نظر موضوعية فإن ذلك يعبر بالتأكيد عن طريقة تصرف غير عقلانية، لكنها تظهر من المنظور غير الموضوعي أن حضارات معينة بها معايير للحياء تضع أمام التصرفات الهادفة لإنقاذ الحياة عوائق يصعب جداً تجاوزها. فروى مثلاً في القرن السابع عشر أن الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا مات بحمى "أصيب بها بعد أن جلس طويلاً بالقرب من وعاء جمر متقد، حيث زادت درجة حرارته فوق المعدل الطبيعي لأن خادمه المسؤول عن إبعاد حوض الفحم لم يحضر عندما ناداه الملك." وتلعب العوامل الحضارية والاجتماعية والشعورية والرمزية دوراً أكبر من غريزة البقاء حتى إن تعلق الأمر ببقاء الإنسان ذاته. لذلك مثلاً ينتحر البعض، أو كان منهم هنا قبل عقود من يسعى هنا للموت كالأبطال.

وبينما يدفع مثال الملك فيليب الثالث إلى التفكير في عجز الفرد عن التوصل للاستنتاج الصحيح في موقف ما، توضح حالات فشل مجتمعات بأكملها أن التشبث بالأنماط الحضارية قد يكون أحياناً ذا تأثير مهلك. ومن الأمثلة التي تستحق التنويه إليها الحالات التي فشلت فيها مجتمعات، بينما نجحت حضارة أخرى في الوقت نفسه والظروف نفسها. وقد قارن "جاريد دياموند" الفايكينغ النورمانديين بالإينويت الذين قطنوا غرينلاند حوالي عام 1000 ميلادية، وهي منطقة من العالم لا تعتبر بأي حال رقعة مناسبة لحياة المجتمعات الإنسانية. واستطاع الفايكينغ الصمود حتى عام 1500، أما الإينويت فلا يزالون في منطقتهم إلى اليوم (وإن كانوا سيرحلون عما قريب على أثر تغير المناخ). وفي سياق السؤال عن سبب عدم فعل الإنسان ما يعلمه أو يستطيع أن يعلمه، فهناك بالنظر إلى حالة فشل الفايكينغ عاملان حضاريان، هما استراتيجيات بقاء ناجحة توارثوها، وصورة الجماعة عن نفسها.

أمن الفايكينغ بقاءهم بالجمع بين الرعي والصيد، حيث طبقوا هذا النموذج الذي

أتوا به من موطنهم الأساسي النرويج على غرينلاند. فعملوا أولاً على تربية الأبقار والخنازير، وكمية أقل من الماعز والخراف التي استطاعت الصمود بشكل أفضل في الظروف المناخية بغرينلاند. وأثبتت الخنازير عدم صلاحيتها لأنها كانت تنبش الأراضي الصالحة – وإن كانت محدودة الاستخدام – وتدمر النباتات الحساسة. كما لم تصلح الأبقار نظراً لشدة قصر الفترة التي كانت تُطلق فيها إلى المراعي في غرينلاند، لهذا فكانت تظل في حظائرها في الفترة الأطول من السنة، كما كانت طاقة كبيرة تهدر في فصل الصيف القصير في جمع الحشائش اليابسة من أجل الفترة التي لا ترعى فيها الأبقار. وجاءت النتيجة مليئة بالغرائب، إذ يقال إن الأبقار صارت بعد عدة سنوات شديدة النحافة حتى أنها أصبحت تُحمل إلى المراعي لأنها لم تعد تستطع السير. وبمرور القرون تراجعت تربية الأبقار والخنازير لصالح تربية الماعز والخراف، واكتسبت الأبقار وضعاً ذا قيمة، إلا أنها لم تعد تلعب دوراً كبيراً في اقتصاد الفايكينغ.

وكانت بعض الحيوانات البرية تمثل مصدراً آخر للغذاء، خاصة زعنفيات الأقدام وحيوانات الكاريبو. وتوضح نتائج الدراسات الأثرية أن حجم لحوم زعنفيات الأقدام كانت تمثل 20 بالمائة من غذاء الفايكينغ عند بداية استيطانهم، بينما وصلت إلى 80 بالمائة قبيل النهاية. وظلت أعداد الماشية تقل شيئاً فشيئاً لأن برودة المناخ زادت صعوبة الوضع. بالإضافة إلى ذلك كان النورمانديون يأكلون الكرنب واللفت والراوند والخس ولكن في إطار محدود، بجانب منتجات الألبان حسب المواشي الموجودة، وطيور البحر والترمجان والأوز والمحار. ومن المثير للدهشة أنهم كانوا لا يأكلون الأسماك، قد يرجع ذلك – كما ذكر دياموند – لأسباب ذات صبغة ثقافية تحرم تناوله. وقد تكون تلك المحظورات الثقافية مترسخة لدرجة تمنع من التفكير حتى في احتمال كون الحيوان المحظور يمثل مصدراً للغذاء. فكانت منزلة السمك كغذاء لدى الفايكينغ تشبه منزلة الكلاب والديدان والحشرات في المجتمعات الغربية.

رجع تفوق الإنويت في فرص بقائهم إلى استفادتهم من مصادر الغذاء الوفيرة في غرينلاند وتكيفهم مع الظروف المناخية والجغرافية بشكل أفضل بفضل زوارق الكاياك

التي اختروعها. ويعقد دياموند مقارنة لم يُرجع فيها ضعف تكيف الفايكينغ النورمانديين إلى عاداتهم الغذائية التي أدت إلى التركيز على اقتصاد تربية الأغنام والماشية فحسب، بل أيضا إلى المركزية الأوروبية الثقافية، وبخاصة الدين المسيحي وما ارتبط بذلك من تعيين أسقف وبناء العديد من الكنائس المناسبة. ولم يكن استيراد الخشب المستخدم في الإنشاء يقل صعوبة عن جلب الأجراس والنبيذ المقدس، بالإضافة إلى الضرائب العالية التي كانت تدفع للكنيسة. ولعبت الهوية الأوروبية الموروثة أيضاً دوراً يمكن رؤيته في الشمعدانات البرونز والحلي المستوردة أو الأدوات المنزلية والملابس على الطراز الأوروبي.

ذلك كله شكّل في ظروف الحياة الشحيحة التي تتسم بها مستعمرة غرينلاند عبئاً زائداً لم يعاني منه الإنويت، ولقد ازدادت تلك العيوب سوءاً مع تدهور الظروف المناخية وأثرها على الموارد الطبيعية. وزادت الأعباء الثقافية للفايكينغ التي تعيق البقاء مع مرور الوقت، بل صارت في النهاية قاتلة كما يصف دياموند بغضب مبرر، وتحديداً "عندما تشبث الناس برعاية الأبقار في الظروف المناخية بغرينلاند، ويُسحب عمال حصاد الحشائش في الصيف كي يرسلوا (...) للصيد، ويُرفض استغلال العوامل المفيدة بتقنيات الإنويت إلى أن تحدث المجاعة."

ويلاحظ أن الجماعات الباقية على قيد الحياة التي تعيش على الحد الأدنى للاحتياجات الضرورية لا تتغذى على الخبز فقط، ويضع العالم الثقافي الرمزي وما يشمله من التزامات سلوكية حدوداَ أمام تقييم أفضل أو أكثر عقلانية لإمكانيات التصرف. ويوجز دياموند بقوله إن الفايكينغ "الذين مثّل البقاء الاجتماعي لهم أهمية لا تقل عن الحفاظ على النوع البيولوجي، لم يفكروا في تقليل بناء الكنائس أو تقليد الإنويت أو التزاوج معهم، ظناً منهم أن هذا قد يودي بهم إلى الجحيم المقيم، وبهذا فقط استطاعوا البقاء على قيد الحياة لشتاء آخر. من الواضح أن تمسك مواطني غرينلاند بصورتهم الذاتية كمسيحيين أوروبيين كان سبباً مهماً في (...) سلوكهم المحافظ. لقد كانوا أوروبيين أكثر من الأوروبيين أنفسهم، ومنع ذلك العائق الثقافي حدوث تغيرات جذرية في أسلوب حياتهم كان من الممكن أن تحافظ على بقائهم."

تمثل الالتزامات الثقافية المحسوسة والمتعلقة بالسلوك جزءاً كبيراً من أسباب عدم فعل الناس ما قد يعرفونه. لهذا يجدر – استكمالاً لنظرية دياموند – التأكيد على أن الإنسان لا يتعامل في سياق الالتزامات الثقافية والسلوكية غالباً مع أمور لها علاقة بالتدبّر ومن ثم القرار، بل على العكس، فإن أسلوب الحياة الثقافي نفسه هو قطعاً ما يحول دون رؤية أشياء معينة أو تغيير العادات الضارة والاستراتيجيات المختلة. لهذا فما قد يمثل من المنظور الداخلي الحد الأقصى من الرشد والبداهة يمكن أن يبدو من المنظور الخارجي قمة اللاعقلانية. ولا ينبغي أن يدفع فشل المجتمعات الراجع إلى التشبث بالتزاماتها الثقافية إلى الإحساس بالغطرسة، فقد أوضح القرن العشرين بما لا يدع للشك أن سكان المجتمعات الحديثة قادرون على خلق بدائل ثقافية ونماذج معيارية تفرض عليهم التزامات قاتلة أو مهلكة. كما قد يؤدي ذلك إلى إنكار الذات على غرار الاستراتيجية "الخاطئة" التي انتهجها الفايكينغ أو أهالي جزيرة الفصح الذين دمروا أساس بقائهم بسبب استخدامهم الزائد عن الحاجة للموارد من أجل بناء التماثيل العملاقة. وسرعان ما تتضح جاذبية السلوك الثقافي عند إمعان النظر في الظواهر المعاصرة.

رجل السيارات

يحث رجل الاقتصاد الألماني بير شتاينبروك في ذروة الأزمة المالية المؤقتة على مراعاة أهمية صناعة السيارات في ألمانيا بقوله "إن لتلك الصناعة تأثير تنبيهي ووظيفة إرشادية بالنسبة للاقتصاد الكلي الألماني، بل وتعتبر حافزاً للتطور التكنولوجي يتعدى المجال بأكمله." وكان يسمي نفسه بفخر شديد "رجل السيارات"، وهو وصف يبين مكانة السيارة في سلوك الرجل الغربي على الأخص، إذ تعتبر السيارة أيقونة محورية في المجتمعات الصناعية، نظراً لقدرتها الرمزية، وارتباطها بكثير من البنيات التحتية، بالإضافة إلى أهميتها بالنسبة للسياسة الصناعية. وفي مجتمع يرى نفسه على قمة التكنولوجيا في عالم صناعة السيارات تعتبر السيارة أداة لا غنى عنه، على غرار البقرة لدى الفايكينغ، حتى لو أنفق الشخص عليها أكثر من إنفاقه إذا تخلى عنها. وعندما فُتحت أسواق السيارات الجديدة في العالم على مصراعيها لم يفكر أحد في عالم خالٍ من السيارات، وإنما دُفعت مكافئات من

أجل إعدام سلع اقتصادية – ما يسمى "خصم استبدال السيارة القديمة بالجديدة"، وهو نظام نُسب إلى مرشح المستشارية الأسبق فرانك فالتر شتاينماير ودافع عنه زيغمار غابرييل، الوزير المختص آنذاك، ووصفها – خلافاً لأي منطق – بمنحة البيئة. فألمانيا بلد سيارات بإجماع الآراء.

تكاليف خصم استبدال السيارات القديمة بالجديدة بالنسبة للمستهلك الألماني	نفقات برنامج مبادرة الامتياز للجامعات الألمانية
5 مليار يورو	1.9 مليار يورو

كما سقطت شركات صناعة السيارات الصغيرة في فرنسا وإيطاليا – بعد أن بدا إنتاجها جيداً في بادئ الأمر – في معترك حمائي تقف فيه أجهزة الرقابة في الاتحاد الأوروبي ومنظمة التجارة العالمية موقف المتفرج السلبي. فوُضع شراء السيارات المحلية في قالب الواجب الوطني خلافاً لجميع المبادئ السامية للعولمة وواقع عالمية العلامات التجارية. وكان السيناتور الأسبق باراك أوباما نائباً عن ولاية إلينوي الشهيرة بالسيارات، بينما تبنى نيكولا ساركوزي الدفاع عن شركة رينو التي قيل عنها من قبل "لو عطست بيانكور لأصيبت فرنسا كلها بالزكام". وفي شرق سيبريا دخلت الطبقة المتوسطة من الروس المصابين بالإحباط في مصادمات دامية في الشوارع لأن موسكو منعت استيراد سيارات تويوتا لأسباب حمائية، ولم يصبح أمام الناس سوى سيارات لادا الروسية، وهو أمر لم يتفهمه الناس مطلقاً.

هكذا تبدو ثورات الخبز في زماننا هذا. لقد أصبحت السيارة اليوم لا تقل قيمة عن الخبز قبل الثورة الفرنسية، فحركية الفرد ومرونته أصبح حق إنساني ملموس. ويرجع تركيز الساسة على الاهتمام بقطاع صناعة السيارات إلى جانب القطاع المصرفي إلى كون تلك الصناعة – بغض النظر عن أهميتها الاقتصادية – رمزاً للمجتمعات الغربية

والمستغرِبة. وتستند هذه المكانة المحورية في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا إلى النصيب الهائل الذي تساهم بها شركات صناعة السيارات بفروعها القريبة والبعيدة في إجمالي الناتج المحلي، إضافة إلى أنها تعتبر مؤشراً للازدهار الاقتصادي. تظل سيارات الأفراد وسيارات النقل – خلافاً للمنطق – وسيلة النقل الأساسية للإنسان والبضائع، عرض شامل للمستقبل يصور القطاع اللوجستي بسيناريوهات الرعب نفسها. كما لا تزال شركات السيارات محركاً للعلاقات الصناعية بين رأس المال والعمل، إذ يستطيع لوبي هذا المجال ابتزاز كل من يريد: فمن يضر بقطاع السيارات يعرض الجمهورية بأكملها للانهيار.

ويدل ارتباط قطاعات كاملة بالسيارة كمنتج دعائي على الأهمية الثقافية للسيارة كما يلاحظ بقوة في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. فالسيارة تعتبر بلا تمحيص المركبة الدالة على الحرية، التي تساعد على حركية الأفراد وتجاوز الحدود البعيدة. ولقد جعلت أفلام السينما وعروض مهارات القيادة من السيارة مصطلحاً ثقافياً شاملاً يشكل الحياة الشخصية والعملية، بل ويصل تأثيره إلى الحصول على الغذاء والرعاية الأساسية، فدون سيارة لن يكون هناك "فاستفود" ولا "وول مارت" ولا فيلم "أمريكان غرافيتي" ولا "مانتا، مانتا".

بل إن مكانة السيارة تفوق كل هذا، فهي بمثابة هوية للعاملين بشركة "دايملر". وتعتبر مدن مثل ديترويت الأمريكية أو فولفسبورغ بألمانيا ذات ثقافات صناعية أحادية. ولا يزال سحر التكنولوجيا وجمالها يفوح من السيارات في أقسام الأولاد بمتاجر لعب الأطفال. وترمز العجلات الأربع إلى علم الهندسة في دول بأكملها تستطيع أن تعبث وتمرح في سباق الجائزة الكبرى "غراند بريكس". السيارة، التي هي ديناصور الحداثة، تعتبر المؤشر الأساسي للتقدم الاجتماعي، وهي بالنسبة لكافة الطبقات رمز فريد للوجاهة ومقياس دقيق للسمعة. يدرك من يرتقي إلى الطبقة العليا في المجتمع قيمتها بداية من اليوم الذي تصبح فيه سيارة العمل بسائقها تحت تصرفه، أما مواطن الطبقة المتوسطة فيحرص على تجميل سيارته، أما من استقل القطار رغم حيازته لرخصة قيادة فيعلم أنه لم يكن

ناجحاً بالقدر الكافي. لعب ستيف ماكوين دور الملازم "بوليت" الذي كان يقود سيارة فورد ماستينغ في شوارع سان فرانسيسكو. أما باول نويمان فكان في الحقيقة سائق سباقات سيارات، بينما ظل ميشائيل شوماخر فترة طويلة أكثر رياضيي العالم دخلاً. وتعتبر السيارة "الخنفساء" موطن يُذكر بالمعجزة الاقتصادية، بينما قدمت كل من السيارتين بي إم دبليو كابريو الفئة الثالثة والسيارة الرياضية المتعدد الأغراض تصميمات شخصية، أما السيارة "غولف" فأنشأت جيلاً كاملاً لتصبح بذلك مركبة متعددة الأوجه تستخدم لأغراض الدعاية والسينما والموضة، باختصار: نشأت أسطورة بالحياة اليومية، حتى وإن كانت السيارة DS 21 من سيتروين قد انقرضت بسبب ابتذال الطراز الموحد.

والخلاصة: حتى إن كان من الواضح تماماً أن السيارة ليست سوى ظاهرة فوضوية في عالم أصبح صغيراً ومستوياً، يتميز بوسائل اتصال ممتازة وتكنولوجيا مبهرة للنقل القريب والبعيد، ، إلا أن زمن السيارة لم ينقضِ بعد، إذ صارت مترسخة في هويتنا الثقافية لا يضاهيها في ذلك شيء آخر. وتعمل الرأسمالية على إشباع احتياجات الإدراك البشري بتوفير إمكانيات الاستهلاك، والسيارة تتيح المتعة وترمز للقوة والتميّز والحرية والراحة والقداسة والتكنولوجيا والصوت – أي أنها الحد الأقصى للمدلول الاستهلاكي. لذلك لا يريد أحد إلغاءها رغم أنها في الحقيقة من مكتسبات الماضي التي عف عليها الزمن.

مدرسة السباحة بعد الظهيرة

إن كان فشل بعض المجتمعات يرجع إلى تمسكها باستراتيجيات نجاح مختلة وظيفياً في ظل ظروف البيئة المتغيرة، فإن الحب الشديد للسيارات في عصر تغير المناخ أمر مثير للقلق. كان السبب الأساسي في فشل المجتمعات يرجع إلى استنفاذ التربة وقطع الغابات، مما أدى إلى تجرف غير قابل للإصلاح أضر إضراراً مستداماً بأسس الحياة. وتبدو عوامل الفشل تلك ذات تأثير هامشي في عالم مثل عالمنا ابتعد ابتعاداً كبيراً عن أسس البقاء، إذ انضمت عوامل أخرى إلى قائمة المسؤولية عن انهيار المجتمعات الصناعية، مثل تجاهل حدود النظام، والتمسك بالتصور القائم عن النمو الاقتصادي، والعناية بالمنتجات "المقدسة". لكن شيئاً واحداً يظل دائماً في أمان، فظواهر الاقتطاع تبدو ابتداء من اللحظة

كأنها تتغذى على نفسها بسبب سوء حالة الموارد الراجع إلى استنفاذها بأي ثمن وشكل كان حتى يستمر الحال على ماهو عليه. بهذه الطريقة يتسارع الهبوط إلى الهاوية، وفي هذا السياق يجدر السؤال عن كيفية تأثير عملية تأمين الوظائف على المدى القصير في الصناعات التي تنكمش أسواقها على القدرات الموجهة لتشكيل مجتمع الصناعة في المستقبل. فإلى أي مدى يجب أن تنعدم المسؤولية حتى يؤثر الإنسان النجاحات قصيرة المدى على النجاحات الطويلة المدى أو حتى على حساب فرص البقاء على قيد الحياة؟

ثمة سؤال بالغ الأهمية يطرح نفسه في إطار تحليل فشل المجتمعات، وتحديداً ما الذي لم يبصره أهل العصر الذي بدا كل شيء على ما يرام؟ إن تحليل عدم المعرفة، الذي حدد المعرفة وإمكانيات التصرف في حقبة تاريخية ما، مهمة في غاية الصعوبة والإفادة إذا أراد الإنسان أن يتعلم شيئاً من التاريخ. قليل من الأحداث التاريخية هو ما يعتبر تاريخياً وقت حدوثه. ومما يثير الدهشة ما دوّنه فرانس كافكا في مذكراته يوم إعلان ألمانيا الحرب على روسيا: "لقد أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا. مدرسة السباحة بعد الظهيرة."

إن المؤرخين هم أول من يصف الكوارث الاجتماعية مثل فشل المجتمعات بالكوارث، وليس المعاصرون الذين يعتقدون أنهم يعملون من أجل الحفاظ على بقائهم ونجاتهم. كان الفايكينغ في غرينلاند يفتقرون إلى نموذج ثقافي يعمل على دمج الابتكارات الممكنة في استراتيجياتهم الهادفة إلى البقاء، بينما لم يكن سكان جزيرة الفصح يعلمون أن مواردهم ستنفد بشكل نهائي من خلال الاستخدام المفرط. أما المجتمعات الحديثة "المختلفة" فالروابط الوظيفية والتسلسلات السلوكية فيها شديدة التعقيد، لهذا فيكاد يمكن وضع رقابة على القيم والحدود الحساسة، ولهذا أيضاً تتوزع وتتقيد المسؤولية مثل المجالات الوظيفية الفردية. وتصيب موجات الصدمات التي تنطلق من حدث كارثي ابتدائي القطاعات كل على حدة وكذلك المعنيين في أوقات مختلفة، أي بتأخر زمني. أما من أطاحت بهم الأزمة المالية مثل الزلزال المدمر، فهم موظفو بنك ليمان براذرز الذين تم تسريحهم في وقت قياسي. أما الباقون فلم يكونوا سوى متفرجين يراقبون من خارج الملعب، وعندما تعصف الأزمة بأحدهم تلو الآخر فسيكون العالم قد تغير تغيراً كبيراً، وتغير معه كل ما يعتبر طبيعياً أو غير طبيعي.

لماذا يعتبر الناس الشتاء الدافئ أمرا طبيعيا؟

يصاب علماء البيئة أحياناً بالإحباط من عدم إدراك الناس مدى تغير البيئة بمرور الوقت. وتظهر دراسة أجريت على عدة أجيال من صيادي الأسماك في كاليفورنيا أن الجيل الأصغر أقل وعياً بمشكلة الصيد الجائر وانقراض الأنواع، بل لم تكن لديهم أدنى فكرة عن احتواء الأماكن التي يلقون فيها شباكهم على كميات أكبر وأنواع أكثر من الأسماك في الماضي. كما توضح نتائج الاستبيانات في الهند أن تناول الأسماك يعتبر السلوك الغذائي الطبيعي ومن ثم المفضّل لدى الأجيال الأصغر سناً، بينما يعتبره كبار السن سلوكاً جديداً وغير مألوف. وكان السبب في انفجار مركبة الفضاء "تشالينجر" عام 1986 يرجع إلى أن معايير ما هو "مقبول" وما هو "غير مقبول" في نقاط الضعف الفنية تغيرت بشكل تدريجي: "عندما ظهرت فجأة مواضع احتراق في الجِلب المستديرة التي كانت تستخدم في سد وحدات معينة في مركبات الإطلاق، وسّع الفنيون تعريف "الخطر المقبول" وضموا إليه الدلائل التي تشير إلى وجود وقود ساخن لامس جلب السد. فما عاملوه في البداية على أنه وضع شاذ صار يُلاحظ ويُعرَّف فيما بعد على أنه حدثاً متوقعاً. بهذا اتسع طيف الأخطاء المتوقعة أولاً بأول، ففي البداية اعتُبر العثور مواضع محترقة على الجلب المستديرة الأولية أمر طبيعي، ثم ما لبت اعتبار ضعف الجلب الدائرية الأولية أمر طبيعي هو الآخر، وأخيراً اعتبر تسرب الحرارة إلى الجلب الدائرية الثانوية واكتشاف ضعفها أيضاً أمراً عادياً." لقد انفجرت المركبة "تشالينجر" بعد سبع ثوانٍ فقط من إطلاقها، ومرت شهور حتى اكتشف سبب الحادث. لم يكن الخلل فنياً، بل كان خللاً اجتماعياً: لقد أدّى تغير المعايير إلى اختلاف في مقاييس تقييم الخطر.

تعتبر تغير المعايير – أي اختلاف الإدراك الخاص توازياً مع المواقف المتغيرة في البيئة الاجتماعية والفيزيائية – أحد أنجح صفات البشر على الإطلاق، الذين هم أكثر المخلوقات قدرة على التكيف، ولا يتورعون أبداً عن التفكير في الاختلاف بين اليوم والأمس. لقد حدثت تغيرات في طرق حياة البشر وتجاربهم ببطء شديد في العصور المبكرة، وعند الحديث عن "هجرة" أسلاف الإنسان من أفريقيا إلى أوروبا وآسيا فسرعان

ما يرد إلى الذهن أناس يرتحلون بنظام حاملين أمتعتهم ليستقروا في أي بقعة يرونها مناسبة. لقد كانت هذه الجماعات البشرية ترتحل بالفعل بنقل القرى تدريجياً من مكان لآخر، كل جيل يتحرك عدة أمتار نحو الشمال أو الغرب. وإذا قال علماء الأنثروبولوجيا إن تغير "فجائي" قد طرأ في بيئة البقاء على قيد الحياة بالنسبة للمجموعات التي يجرون عليها أبحاثهم، فقد يستدركون ذلك بعبارة "في فترة تقدر بحوالي 10 آلاف جيل."

لكن هذه المرونة قد تشكل ضرراً كبيراً في سياق عمليات التغيير المتزايدة والمتسارعة التهديد التي تمر بها بيئات البقاء، "فتغير المعايير" قائم أيضاً في الحيز الاجتماعي، ويُذكر بذلك تغير القيم المجتمعية الشامل في عصر النازي حيث لم يكن أغلب المواطنين عام 1933 يحسبون أنهم سيشاركون مشاركة فاعلة في سلب حقوق اليهود وسوقهم إلى القتل. وشهد هؤلاء الألمان حركات إبعاد اليهود ابتداء من عام 1941، واشترى كثير منهم في تلك الفترة تجهيزات مطبخية وغرف للجلوس وأعمال فنية "آرية"، وأبرم البعض صفقات أو سكن بيوتاً أُخذت من ملاكها اليهود قسراً، دون أن يجد غضاضة في ذلك.

إن عدم ملاحظة التغير الجذري في العالم وما يشمله من معايير ومسلمات يرجع أيضاً إلى أن التغيرات المحسوسة لا تظهر سوى في جزء ضئيل للغاية من الواقع المعيش. ويقلل الناس دائماً من قدر مساهمة الروتين اليومي وسريان الأحداث بشكل معتاد وبقاء كل من المؤسسات ووسائل الإعلام والرعاية في الاعتقاد بأن شيئاً لن يحدث: فتسير الحافلات، وتطير الطائرات، وتصطف السيارات في زحام وقت انتهاء الدوام، وتتزين المتاجر بزينة رأس السنة. كل ذلك يعد شاهداً على طبيعية تلك الأمور ويعزز الإيمان بأن الحقيقة المعروفة لا تزال قائمة ولم يحل محلها شيء آخر دون أن يشعر أحد.

يعيش الناس الحاضر في اللحظة الذي التي يكتب فيها التاريخ. وعلى خلاف العواصف والزلازل لا تطرأ الكوارث الاجتماعية فجأة، وإنما تكاد تكون عملية غير مرئية بالنسبة للإدراك تتسع فيما بعد لتتحول إلى حدث انفجاري من خلال مصطلحات مثل "الانهيار" أو "زوال المدنية". يطرح المؤرخون سؤالاً عن سبب عدم الانتباه فيما مضى إلى أن تطور ما مؤشر على حدوث الكارثة من خلال علمهم بما آلت إليه الأوضاع، حيث

نظروا من نهاية القصة إلى بدايتها وبدأوا يسردون تحليلاً انعكاسياً عن أسباب وقوع هذا الحدث أو ذاك، ومن ثم استطاعوا تفسير العمليات التاريخية بمنطقية أكبر مما فسرت به أثناء حدوثها.

من المعروف إن حجم الجهل يزيد بزيادة العلم، لكن "كارل بوبر" نظر إلى ذلك نظرة أكثر تفاؤلاً كتحدٍ دائم أمام مجتمعات العلم. وتوضح الأزمة الشاملة أن الإنسان يحارب على جبهات كثيرة مع الجهل اللامحدود بتبعات تصرفاته. وكيف للإنسان المعاصر أن يدرك أنه يمر بـنقطة تحول منتظمة؟ إذ لم يمضِ على المرحلة الأخيرة قرنان من الزمان. ذلك الانهيار الذي لم يتكهن به أحد، الذي أصاب الأنظمة السياسية في نصف الكرة الأرضية بأكمله، وما صاحبه من تبعات جذرية بالنسبة للتشكيل الدولي. آنذاك أعلنت نهاية التاريخ بعد أن بدا الانتصار الغربي في ذروته، لكن التطور المذكور الذي شهدته النظم الغير ديمقراطية أو الرأسمالية، على غرار الصين وروسيا، يظهر أن ذلك الحكم جاء متعجلاً بعض الشيء.

قد يحدد المؤرخون لاحقاً عام 1989 نقطة بداية لانهيار الديمقراطيات وتفكك الأنظمة الرأسمالية، والأزمة المالية التي حدثت تسعة عشرة عاماً بعده كمرحلة تالية في طريق النهاية. وعلى أية حال، فإن أمال الاستقرار، المنتظرة من نظام كنظام جمهورية ألمانيا الاتحادية، لا يمكن تفسرها بستين عاماً مضت من الازدهار. كما يتضح من خلال النظر إلى التاريخ أن المجتمعات والحضارات التي عاشت حالة طويلة من الازدهار أضحت غير مستقرة. وأظهر القرن العشرين في الأعوام 1914 و1917 و1933 و1939 و1945 و1989 بما لا يدع مجالاً للشك أن عمليات تحول مجتمعي شديدة السرعة قد تحدث في أي وقت، وأن تلك العمليات لا تنتهي دائماً بسلام.

الإجابة على السؤال عن عدم فعل الإنسان ما يعرفه بسيطة للغاية. بداية يمكن القول إن على الأفراد والمجتمعات في ظل تعقيدية النظام الأرضي والمجتمع الدولي حل المهمات والمصالح الشديدة التباين على أرض الواقع. ليس هناك سياق اجتماعي متصل بين الطفل اللاجئ في دارفور والعامل في شركة أوبل ورئيس مجلس إدارة إيكسون موبيل،

ومن ثم فليس هناك منطق مشترك يجمع بين تصرفاتهم. من هذا المنطلق، فإن البحث على إجابة للسؤال عن سبب صعوبة الانسلاخ من المعرفة إلى التصرف هو في الحقيقة لغز مصطنع ، لأن هناك سلسلة من العوامل المتداخلة تقف دائماً عائقاً نفسياً واجتماعياً بين المعرفة والتصرف، أو بشكل أبسط، لأن الناس ليسوا مخلوقات تستجيب لعوامل الإثارة استجابة صناعية مثل كلاب بافلوف.

بل إنهم يحاولون التغلب على ما يرونه متطلبات، هذا يعني أنهم يختارون ما يدركون ويفسرون هذا الإدراك قبل التصرف. وغالباً يصعب عليهم توقع ما قد يؤدي إليه كل ذلك لأنهم يستخدمون وسائل جزئية لإيجاد حلول جزئية. إضافة إلى ذلك، فمحاولات الإنسان للتغلب لا تكون أبداً مواجهات تستخدم معطيات مادية، وإنما دئماً ذات شكل ثقافي دون أن يدرك الأفراد سبب وجود إمكانيات الحل "القريبة" أو "الأفضل" خارج دائرة الأطراف الفاعلة في أغلب الأحيان. وهناك قصة رائعة للكاتب "إدغار ألان بو" عن الخطاب الضائع الذي لم يمكن العثور عليه لأنه كان موجوداً وسط الطاولة، أي لا يمكن العثور عليه من مبدأ "البحث عن شيء مختفٍ". وعليه فإن أهالي المجتمعات الفاشلة لا يرون في أغلب الأحيان أن الحلول تكون أحياناً واضحة وضوح الشمس، فكان بمقدور الفايكينغ مثلاً التغلب على جزء كبير من مشكلاتهم بمجرد أكل السمك.

يدعم الحاجز الثقافي للإدراك بجانبيه بالظواهر النفسية لتغيير المعايير وبالتنافر المعرفي. فعندما يُحوّل "تغير المعايير" الانتباه إلى متغير منبّه أو مُقلق فإن حركيات خفض التنافر تساعد في إعادة تعريف ما يبدو تغييره صعباً، حيث تقلل أو تضعف ما هو خطر في الواقع ويستلزم التعامل معه، وتخلق حالة من اللامبالاة والتبلد. إن تجربة عدم حدوث شيء يهز العالم أو عدم تطور الأمور إلى هذا الحد، وكذلك الحاجة إلى محو التنافر، تؤديان إلى تراجع مزمن في إدراك تطور الأشياء. كتب الفيلسوف غونتر أندرس قبل أربعين عاماً في إشارة إلى خطر إبادة البشرية نفسها بالطاقة الذرية "إننا ما زلنا ما كنا نظنه بالأمس عن أنفسنا. ومواقفنا لا تتماشى مع التهديدات المتغيرة".

"العمى عن رؤية انهيار العالم"، أو العجز عن تقدير المخاطر المستقبلية تقديراً مناسباً

وتحويلها إلى علامات إرشادية للتصرف في الوقت الحاضر، كل هذا يوضح الظاهرة المثيرة للقلق المتمثلة – من وجهة نظر علمية – في عدم وجود شك يُذكر في الانهيار الذي يتربص بالعديد من المجتمعات جرّاء تغير المناخ، وتبدّل ظروف الحياة بالنسبة لجميع البشر بشكل جذري على المدى المتوسط، هذا من من ناحية، ومن ناحية أخرى فليس هناك بالكاد من يؤمن بذلك إيماناً حقيقياً. ويدل على ذلك مثال أولئك الذين لم يشكوا لحظة واحدة في أنهم جماعة مختارة، فرغم أن النبوءة كانت خاطئة لا تتوقف قدرة الإنسان على تكييف الواقع على الوهم عند حد معين. قد يكون ذلك مفيداً في بعض الأحيان، لكنه قد يكون في أحيان أخرى انتحارياً.

لماذا التقاعس إذا؟

لم يستطع الإنسان طويلاً أن يدرك الأزمة الشاملة التي تراكمت على خلفية الحياة الدنيا التي لم يمسها مكروه، لأن ظروف المعيشة الآمنة والمريحة لأقصى حد بمقاييس الحياة وفرت عليه الدخول في مواجهة مع المشاكل الوجودية في الزمن الحاضر. ربما تتمثل أكبر مفاجئات الحاضر في خلقه قوة للأمر الواقع قد تؤدي إلى حدوث خلط بسيط بينه وبين الانطباع بأن كل شيء لا يزال على ما يرام، وذلك من خلال المؤسسات والبنيات التحتية، والثراء، والبيوت. لقد أفسد السوق والدولة قدرة المجتمعات الحديثة على التدخل. وإن صح ذلك فلا بد من توجيه النقد إلى ضوابط إدارة الأزمات الحالية. وبنظرة واقعية إلى عمليات تآكل الديمقراطيات الغربية يمكن تقدير إن كان هناك ما يمكن إنقاذه في هذا العالم، وما هو الذي يمكن للإنسان أن ينقذه؟